

المبدع من وثيقة البوح والاعتراف إلى تفكيك واستنطاق النص

" دراسة نفسية "

أ.محمودي بشير ♥

ج. تيارت الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018-01-07 تاريخ القبول: 2018-04-18

مدخل: إن البحث عن العقد النفسية والمكبوتات اللاشعورية للمبدع في العمل الأدبي، قد أخذ حيزا واسعا واهتماما كبيرا لدى الباحثين والدارسين، من حيث كثرة الدراسات الأدبية والبحوث التي تناولت هذا المجال بإسهاب وبوفرة واضحين إلى درجة الاقتناع أن ما يعاد قوله أو الخوض فيه في هذا المجال يكون على سبيل التكرار أو الاجترار، حتى لو اختلف المبدعون المعنيون بالدراسة واختلفت النصوص المعنية بالمعالجة والتحليل، إذ النظريات والمقولات النفسية تكاد تكون نفسها، خاضعة لقاموس أو معجم موحد، وهذا ما يجعل البحث في القضايا النفسية من الأمور المألوفة والمستهلكة.

لذلك لا بد أن نبحت عن رؤيا أو زاوية جديدة ننظر بها إلى الموضوع حتى لو كان مستهلكا أو مطروقا بالاستعانة بالمستجدات أو القضايا الجديدة التي ظهرت على المستوى النظري أو الاجرائي في مجال الدراسات النفسية وبخاصة تلك الأليات والأدوات المنهجية الجديدة في تحليل وقراءة النصوص. مما يجعل إثارة البحث في القضايا النفسية للمبدع أو المؤلف من تلك الرؤى أو الزوايا يفتح الشهية من جديد وإعادة تقديم ما قيل من وصفات وما حدد من تشخيصات سابقا، وفق

دراسة أو منهجية جديدة، تؤكد ما تم الوصول إليه، أو تعدله وإن لم نقل تلغيه تماماً.

ولعل من أهم المقولات الجوهرية التي لا بد أن تستفيد منها أو تستثمرها الدراسات النفسية هي مقولة المحايثة، كمبدأ أساسي يؤسس لمعظم التيارات والمناهج الجديدة أو المعاصرة في قراءة أو مقاربات النصوص أو الخطابات بكل أنواعها، مهما كانت أهداف أو مرامي تلك القراءات أو المقاربات. فكثيراً من الاستنتاجات والتشخيصات النفسية الخاصة بالمبدعين أو المؤلفين كانت ناتجة عن اعتراف أو بوح لهؤلاء المؤلفين أنفسهم، أو ناتجة عن شهادات وتصريحات من قبل المقربين أو المرافقين لهم في أغلب الأحيان، في غياب دراسة محايدة للنصوص، مهما كانت طبيعة تلك النصوص، فقد تكون نصوصاً إبداعية مطبوعة أو نصوصاً لمسودات أو مشاريع لنصوص لم تكتمل بعد، أو قصاصات يكتبها ويوقعها المبدعون على الهامش في مناسبات رسمية أو غير رسمية أو نصوصاً لاعتراقات واستجوابات ومقابلات خاصة.

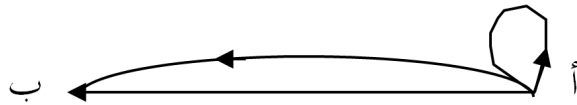
إن الدراسة الدقيقة والمتعمنة تفرض جمع كل شتات النصوص المتعلقة بالمبدع أو المؤلف من أجل تحليلها وفحصها، لتكون بمثابة الكاشف الوحيد عن أية ملاحظة أو أي استنتاج أو تشخيص يتعلق بالجوانب النفسية أو الداخلية للمبدع أو بالعالم الخفية والمظلمة من حياته، بكل ما تخفيه من عقد وهواجس وأحلام ورغبات وطموحات ودوافع، تقف غالباً وراء عملية الإبداع أو الكتابة.

يقول أحمد حيدوش: "قالذي يهمه، أولاً، هو أن يعرف فكر وعبقرية المؤلفين وأن يرسم صوراً صادقة لجوانب حياتهم النفسية منها خاصة، مع التركيز على الجوانب الأكثر خصوصية والأكثر ديمومة فيهم انطلاقاً من عملية تشريحية لإنتاجهم الأدبي ثم محاولة إظهار كيفية تطور الإنسان وموهبته عبر الزمن"⁽¹⁾.

المبدع من وثيقة البوح والاعتراف إلى تفكيك واستنطاق النص

ولعل تقنية التشريح أو التفكيك للنصوص في منهجيات الدراسة الأدبية أو النقدية المعاصرة، تتماشى مع مقولة جمع لكل الخيوط المتعلقة بشخصية الأديب أو المبدع مهما كانت طبيعة تلك الخيوط، من حيث قيمتها وعلاقتها بحياة المبدع. وهذا يؤدي بنا إلى تفكيك وتشريح لشتات النصوص المتعلقة بالمبدع التي كتبها أو صرح بها. على أن تتم عملية تصنيف أخرى للنصوص حسب درجة الأهمية أو الشكل الذي تظهر به. وفي كل الأحوال يصبح الحديث عن شخصية المبدع، لا يتم إلا في إطار أو حلقة ما يفرزه تحليل وتشريح تلك النصوص (نصوص المسودات، النصوص المطبوعة، نصوص المقابلات، نصوص الرسائل، إلخ)، لنبتعد بذلك عن التخمينات الافتراضية والاستنتاجات الاحتمالية.

إن البنى النفسية للمبدع بكل مضامينها ومعطياتها لا بد أن تتحول إلى بنى لغوية وكتل نصية، حيث نجد أنفسنا أمام أبنية لغوية تخفي أبنية نفسية أو سيكولوجية. ومن ثمة تصبح جدلية الداخل والخارج أو الجواني والبراني مطروحة بحدّة، إذ ننتقل من داخل النص (الجواني) بتحليل شفراته وتراكيبه اللغوية للوصول أو لاكتشاف ما هو خارج النص (البراني) من معطيات وعقد نفسية مرتبطة بالمبدع أو المؤلف.



(خارج النص)

(داخل النص)

وهكذا نعلم إلى تصنيف شتات النصوص وترتيبه حسب أولويات أو عتبات تسمح بتعرية العالم الداخلي للمبدع ومعرفة الخفايا والزوايا المظلمة من حياته أمام نصوص مختلفة من حيث القيمة، كنصوص المسودات والنصوص المطبوعة ونصوص المقابلات والرسائل الخاصة التي تتضمن البوح والاعتراف بالجوانب الداخلية والقضايا النفسية المتعلقة بشخصية المبدع.

فنص مسودة العمل الأدبي يمكن أن نطلق عليها تسمية **النص التحتي** لأنها بمثابة الأصول أو الوثيقة الأم، التي تبين مراحل تشكل النص وميلاده، وكأنها تقوم بوظيفة رسم جنيني وتحديد عضوي لتكون النص، فهي صورة أو نسخة من النص المطبوع المكتمل، إلا أنها تختلف كل الاختلاف (المسودة) عنه. فهي تأخذ مظهرا آخر بدءا بالخط الذي تظهر به، فهو خط المؤلف نفسه إضافة إلى اللمسات البارزة والمؤشرات الواضحة، قد تكون حذفا أو شطبا أو بياضا أو إلى غير ذلك من التصحيحات والتعديلات التي يعمد إليها المبدع أثناء الكتابة، والتي تحدث بصفة عفوية أو بصفة مقصودة.

إن الاستبدالات والاختيارات التي تظهر في **النص التحتي** (نص المسودة) ليست بريئة، وحتى لو كانت كذلك، فالمحلل النفسي يتخذها علامة دالة أو إشارة تلميح إلى ما يريد الوصول إليه أو تشخيصه. فهو يتشبت بأي خيط يمكنه من اكتشاف الحقيقة النفسية للمبدع، مهما كان ذلك الخيط واهيا أو وهميا وبغض النظر عن النتائج المتوصل إليها لابد أن تكون معطياتها منطلقاتها من النص في حد ذاته.

وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن أن نطمئن لنص المسودة أو النص التحتي على أنه الأصل المولد لكل حقيقة والمتضمن لكل معطى نفسي، لا يرتقي إليه الشك ولا يطاله الريب. فهو في كل الأحوال نسخة منقحة ومعدلة تحيل إلى النص المطبوع الذي يمكن أن نطلق عليه تسمية **النص الموازي**. وهو نص يوازي النص التحتي (نص المسودة)، يتجهان اتجاها واحدا وفي حركة واستقامة واحدة، ولكنهما لا يتقاطعان أبدا، حتى لو كان المنطق يفرض التعامل معهما على أساس الأصل والصورة أو النسخة المطابقة، وإن كان منهج التحليل النفسي لا تغريه التطابقات بقدر ما تغريه الاختلافات أو التناقضات.

إن البحث عن الاختلاف أو التناقض هو الهاجس الذي يسيطر على المحلل النفسي، إذ لا يمكن أن نعد إلى تطبيقات معيارية أو إلى تدريبات آلية بنمط

تعليمي جامد بين النسختين (النص التحتي/ النص الموازي). فالنص الموازي (النص المطبوع) هو نص مغاير قد يبتعد عن النص التحتي (نص المسودة) بدرجة أو بدرجتين، لأنه خاضع من وقت إلى آخر للمراجعات والتنقيحات التي قد تتضمن ميولات نفسية ورغبات داخلية أو دوافع مكتوبة تستقر في لاشعور المبدع.

أما النص الثالث من شتات النصوص الذي أشرنا إليه سلفاً، فهو نص المراسلات والمقابلات الخاصة والذي يمكن أن نسميه بالنص الفوقي الذي يتضمن اعترافاً أو بوحاً حول شخصية المبدع، من حيث الاعتراف بتأملاته وميولاته الداخلية أو النفسية، وكذلك الإشارة إلى لحظات الكتابة وما يصاحبها من مشاعر وانفعالات وطقوس خاصة. وهذا النص يتعالى على بقية النصين (النص التحتي/ النص الموازي) لكونه يتضمن تصريحات واعترافات تبدو قطعية و يقينية من المؤلف نفسه إلا أنه لابد أن لا ننساق معها أو نطمئن إليها. فهي اعترافات قد تخضع إلى عملية قص أو حذف وتكتم على بعض القضايا والمشاكل التي تعد من الأسرار التي يتحفظ المبدع من ذكرها أو حتى الإشارة إليها.

فاعترافات المبدع في نص المراسلات والمقابلات (النص الفوقي) تقترب من التصريحات الدبلوماسية المقنضة والمختارة التي يتم اختيار عباراتها وملفوظاتها بذكاء وفطنة شديدين وبحرص وتحفظ كبيرين. وبذلك تبقى تلك الاعترافات مجرد تصريحات يستأنس بها فقط، ولا بد أن لا تتحول إلى موجّهات ومؤطرات لقراءة وتشريح النصوص من أجل استخلاص النماذج والقوانين النفسية التي تتضمنها.

فالمبدع في نهاية الأمر لا يريد أن ينكشف أو يتعرى أمام الجميع، لأن ذلك يجعله ملكاً مشاعاً. فهو يحرص على أن تبقى شخصيته غامضة ومبهمة ونصوصه الإبداعية مستغلقة، تضمن البقاء والاستمرار من ثمة تكون اعترافاته مجرد توقيعات تستجيب للباقة ما أو تحضر لابد منهما في جلسات الحوار ومقابلات الاستضافة ومراسلات الكتابة.

ومن أجل تحقيق التكامل الوظيفي بين شتات النصوص، من أجل استخلاص واكتشاف القضايا والسلوكيات النفسية، اخترنا الروائي محمد العالي عرعار⁽²⁾ لتحقيق أهم الرؤى والأفكار النظرية، من حيث فحص وتشريح لنصوص مسودات رواية **البحث عن الوجه الآخر**⁽³⁾، وتحليل النص المطبوع للرواية نفسها، مع قراءة وثيقة بعث بها الروائي نفسه معنونة بـ: **اعترافات حول لحظات الكتابة** وهكذا تم لنا جمع شتات النصوص (نص المسودة، النص المطبوع، نص الاعتراف أو نص المراسلة).

النص التحتي (نص المسودة): إن فحص ومعاينة مسودة رواية "البحث عن الوجه الآخر" (النص التحتي) يجعلنا نقف عند ظاهرة رسم الحروف أثناء الكتابة وكذا كثرة الشطب المتعلق برسمها، إضافة إلى أنها تخضع إلى رسم مخالف من حين إلى آخر. وهي حروف في الأساس مفتوحة وليست مغلقة، إلا أن الروائي يعتمد إلى رسمها بشكل مغلق مع الشطب الذي يدل على التصحيح أو قد يدل على تثبيت ذلك الخرق في رسم الحروف (أنظر الملحق رقم 01).

فالأخطأ وارد أثناء الكتابة وتراجع المؤلف للتصحيح ممكن ومحتمل كذلك ولكن الخطأ إذا تكرر يصبح عادة والعادة من الأوتار التي يحب أو يرغب علماء النفس في مداعبتها أو الرقن عليها. ولعل ظاهرة رسم الحروف ووجودها بصورة بقع ملطخة بالحبر وبشكل دمغات سوداء بارزة وبوضعية مكررة وملفتة للانتباه ومثيرة للاهتمام من أجل فك شفراتها والكشف عن أسرارها.

ولعل السر الذي يطرح نفسه هنا وبإلحاح، هو الرسم المنغلق للحروف، فنحن أمام نزعة نفسية أو ميول داخلية لدى المؤلف إلى الانغلاق، الذي يمكن أن نترجمه إلى ظاهرة الانطواء (L'intertroversi⁽⁴⁾). وهو نوع من السلوك لدى الإنسان لا يصل إلى حد الأمراض العصبية، وإنما هو خيار في الحياة تابع من قناعات فكرية وتأملات فلسفية تؤدي إلى انطواء الشخص على ذاته وخلق عالم خاصا به

مع اندماج قليل اجتماعيا. فإن عدم التكافؤ أو التجانس في درجة الفكر أو الوعي بين الشخص والآخرين يجعله يميل إلى هذا الانطواء الذي هو نمط من الحياة يختاره الانسان بوعي وقناعة، كفلسفة في الحياة وليس نمطا مفروضا أو ناتجا عن دوافع غامضة ونزعات لا شعورية أو مكبوتات خاضعة لعقد نفسية ومشكلات داخلية متشابكة ومتداخلة تؤدي بالشخص إلى حياة غير سوية، فيعيش حالة من الهستيريا والعصاب تنتهي غالبا بمصير الانتحار أو الضياع.

وهذه الحدة غير مطروحة لدى "عرعار" الذي يمثل بطل رواية "البحث عن الوجه الآخر" الذي يميل إلى الانطواء، كانشغال واستغراق في التصورات والتأملات الفكرية. مما يجعل هذه الاستنتاجات أو التخمينات تكاد تكون يقينية، هو تدخل الروائي نفسه بشروحات وتعليقات داخل النص، تكشف أحيانا عن كل ما تصرح به الشخصيات في الرواية، وإن كان لا يوجد في هذه الرواية إلا شخصية واحدة، هي شخصية المؤلف حتى لو ظهرت شخصيات أخرى فهي مجرد أبواق ينفخ فيها المؤلف صوته وروحه ويحملها لمساته وتوقعاته ويشحنها بأفكاره وتأملاته. وهذا ما يؤكد ويعترف به المؤلف نفسه.

- "إن حقيقة الأمر، هو أنا نفسي أمثل الأدوار وليس هناك أحد معي" (5)

ولعل اعتراف البطل (السارد/ المؤلف) بأحادية الصوت في الرواية يدل على النزعة الانطوائية لشخصيات الرواية أو بتعبير أدق يدل على النزعة الانطوائية لشخصية الرواية (البطل/السارد/ المؤلف) فالمادة الحكائية، لا تخرج عن عرض للتصورات والتأملات وعرض للرؤى الفكرية والفلسفية حول الحياة والوجود والكون وكل ما هو محيط بالشخصية (المؤلف). فكل الأشياء مشحونة بمعطيات فكرية مفرغة من محتواها الواقعي أو الطبيعي، حيث تتحول إلى قيم ورؤى تسقطها الشخصية على الأشياء، لتتحول في نهاية الأمر إلى كائنات حية تتعامل

وتتفاعل معها الشخصية بشكل إيجابي وبطمأنينة وارتياح، وهذا نمط من أنماط العزلة أو الوحدة يعكسان التعامل أو الاندماج القليل في المجتمع أو مع الآخرين. كما أن عناية المحلل النفسي بطبيعة ورسم الحروف في النص الابداعي، سواء كان يمثل مسودة العمل الأدبي أم النص المطبوع، ظاهرة أشار أو تعامل معها المحلل النفسي "جاك لاكان" Jaque Lacan " في تحليله للنصوص الروائية من وجهة علم النفس البنيوي. وهي معالجة مثيرة ومدهشة من حيث معالجة البنية اللغوية للنص، انطلاقاً من أصغر وحدة بنائية له (الحرف) ومقابلة البنية اللغوية ببنية نفسية ترتبط بلاوعي المؤلف أو بعالم اللاشعور.

لعل رسم الحروف عند "عرعار" في نص المسودة يوحي كذلك ببنى نفسية لا واعية ترتبط بعالمه النفسي أو الداخلي. فالحروف لم تستقر على رسمها الطبيعي أو السوي وحتى رسمها غير السوي لم يستقر هو الآخر، فرسم الحروف يتغير من حين إلى آخر. وهذا يدل على حياة مضطربة ومشوشة لدى المبدع (المؤلف) ناتجة عن عدم استقرار الذات فكرياً وعدم تجانس أفكارها وتأملاتها مع أفكار وتأملات الآخرين مما جعلها تتطوي على نفسها في حوار ومناجاة ذاتية أساسها معطيات ذهنية وعقلية تطمح إلى تحقيق عالم آخر حتى لو على سبيل الحلم والخيال.

إن رسم الحروف (ج، ح، ع) لم يخضع إلى وضع خطي طبيعي وإنما خضع إلى رسم مغلق بدمغة حبرية داكنة وبصورة مكررة (ج، ح، ع) فكل ما هو انفتاح وإقبال يتحول إلى انغلاق وانعزال، وذلك يعكس البنية النفسية القلقة والمضطربة التي لا تستقر بل هي في حركة متذبذبة بين الرغبة في الاندماج والمسايرة وبين رغبة الرفض والامتناع.

"الآخرون.

الكتل الحية المتحركة، المتماوجة هنا وهناك وفق إيقاع مجهول، لا أبغي الاندماج فيها .. إنها بالنسبة لي عبارة عن لوحات فقدت مضمونها فتلاشت أجزاء

دون وحدة ومن غير اتساق. أعرف أنني بمفردي، ودون هذه الجموع من الأحياء لا أستطيع العيش .. فارتباطي حتمية اجتماعية لكن أحس أنني أختزن في وجودي الحقيقة الوحيدة هذه الحقيقة تلوح صغيرة بسيطة، بل تافهة لبساطتها ... ولكن من جهة أخرى غير مستقرة على حال⁽⁶⁾

وإذا تمعنا في الصفحة الثانية من مسودات رواية "البحث عن الوجه الآخر" تستوقفنا ظاهرة أخرى، عدا ظاهرة رسم الحروف التي لاحظناها في المدونة رقم 01 (أنظر الملحق) وهي حذف وشطب لتسع كلمات؛ إذ يثير شطب كلمة واحدة تساؤلات عديدة، من حيث قراءة هذه الكلمة في حذ ذاتها والتي جاءت مقرونة بكلمة "محدثة الهاتف" أي وجود لذكر امرأة مع أن الكلمة المحذوفة أو المشطوبة تدل على كلمة الأم ولكن باللهجة العامية الجزائرية (بيما uma) التي خضعت إلى رسم أو كتابة باللغة الفرنسية، وهذا كله ناتج عن إملاءات أو انزلاقات اللاوعي (أنظر الملحق رقم 02).

وقد ينكر المبدع أو المؤلف هذا التخريج، بل قد يراه ضربا من الوهم لأن فك طلاسم ما هو مشطوب أو محذوف قد يختلف من شخص إلى آخر ولكن هذا لا يمنع من أن التحليل النفسي يستند في استنتاجاته وتخريجاته إلى أي خيط أو ملاحظة يساعدان في بناء تصور أو تخريج ما.

فتذكر الأم هنا الذي جاء مقرونا بتذكر محدثة الهاتف المجهولة، ما هو إلا استعادة الارتباط بالأم، وقد لا يكون هذا الارتباط ناتجا عن دوافع جنسية. وإنما قد يرتبط بالتصور المثالي والوجود المتعالي للأم عند المبدع، وإن كان فرويد (Freud) أرجع ذلك إلى عقدة نفسية سماها بعقدة أوديب⁽⁷⁾ التي تتضمن ارتباط الابن بالأم ارتباطا جنسيا وكرهه للأب كطرف منافس لهذا الارتباط أو الحب يصل إلى حد قتله.

وإن كان هذا مستبعدا عند "عرعار" فكل ما يبدو أنه عقد نفسية وأمراض عصابية وشطحات جنونية لدى المبدع (بطل الرواية) يرجع أساسه إلى معطى فكري وفلسفي. فالموجودات والكائنات تخضع لنمط خاص وطبيعة معينة، ينحدران من التصور الفكري للحياة أساسا، حيث إن كل شيء يتلون بهذه الفلسفة التي تؤطر حياة المبدع فالموجودات هي الأشياء التي ترسخت في الذاكرة وكونت، العالم الطفولي للمبدع عالم الصفاء والنقاء، الذي لم يندس ولم يلطخ، كوجود الأم الذي يمثل الصورة المثالية التي تحقق له الارتياح والطمأنينة أو تحقق له ما يسميه المبدع بالدفع أو المعاشة.

ولعل ارتباط المبدع بهذا العالم (عالم الطفولة) يعود، إلى الوجود الأولي في هذه المرحلة الذي كان وجودا طبيعيا، لم يستطع المبدع تحديد معالمه ومعطياته، وإنما يعيشه بصورة عادية وطبيعية، يتفاعل وإقبال دون مساءلة أو حيرة تلك المساءلة التي تولدت في مرحلة لاحقة. وهي مرحلة النضج وامتلاك المبدع لدرجة من الوعي أو التفكير، جعلته يشحن كل الموجودات والكائنات المحيطة به بنتائج تصوراتهِ وتأملاتهِ الفكرية، فلم يتحقق له التعايش أو الاندماج، لعدم وجود التكافؤ الفكري، مما جعله حبيس عالمه الخاص، يطل على الواقع من برج فوق متعالي بسخرية وأحيانا باشمئزاز وتقزز. وكأن هذا الواقع لا يعنيه في شيء مطلقا فتتنطوي الشخصية على ذاتها موهلة وغارقة في بحر من التأملات والخيالات تصل إلى أبعد حدود الكون والوجود.

النص الموازي (النص المطبوع): النص الموازي (النص المطبوع) هو نص يوازي أو يقابل النص التحتي (نص المسودة) ولكنه لا يتطابق معه أو يتداخل. فقد يوحي بأنه هو، ولكن لا بد أن لا نسلم بهذه الفكرة باعتبار أن النص التحتي أو نص المسودة لا يستقر على حال. فقد يغير المبدع من هذا النص ويتراجع عن بعض الأساليب أو التعابير ويتردد في توظيف بعض الصبغ أو الصور وبالتالي يتراجع

عن بعض الأفكار أو المعطيات، حتى لو كان ذلك التغيير جزئياً وضئيلاً، لأنه لا يمكن أن يمحى النص الموازي النصّ التحتي أو يحذفه تماماً، وإنما تقع بعض التحويلات أو التعديلات على شكل رقع متناثرة عبر مساحة النصّ.

إلا أن النزعة العامة تبقى تهيمن أو تسيطر على النصّ، فنص المسودة مهما كان، فهو مشروع لكتابة نص ما، سواء كان شعراً أم رواية أم غير ذلك، وهذا ما يمكن أن نسميه بمحور أو لب النصّ. أما محور رواية "البحث عن الوجه الآخر" فهو محور فكري يحيل إلى أجواء نفسية ومعطيات سيكولوجية، أساسها استغراق الذات في التأمّلات الفكرية والحوارات الفلسفية المطولة والغريبة في أغلب الأحيان تعكس أجواءً أسطورية وفضاءات عجائبية، لا تدل على الخرافة أو الوهم، بقدر ما تدل على الواقع، بل على نمط أو مظهر من مظاهر معاشته والتفاعل معه بعمق وبدرجة عالية من الوعي والفكر في بنية الواقع وحركيته وتحولاته، وعلاقة كل ذلك بوجود الإنسان، وبدوره أو موقفه من هذا الوجود. وهكذا فإن ما يبدو خرافة أو وهماً عند "عرعار" هو واقع وحقيقة، أو بتعبير آخر الحقيقة كما يراها بنزعة عرعارية. (8)

وهي نزعة تميل إلى رسم حدود للعالم يستمد تفاصيله ومعالمه من الواقع، ولكن برؤيا متعالية ومثالية وبفلسفة عميقة، تحددان ملامح لواقع آخر، يخلقه المبدع "عرعار" ويشكله بقدرة عظيمة وتمكن كبير. يجعلانه يسبح في عالم من الوجود النوراني والفيض الروحاني في عالم الوحدة والانطواء. وهذا التفرّد يعود إلى عدم محاولة الذات تغيير الواقع بتغيير نمط معاشة الآخرين وتفاعلهم معه، حتى على مستوى المحيط القريب من الذات أو المفروض على الذات التعامل معه.

• "من أنه بإمكانني إحداث وخلق ما أشاء" (9)

• "التحولات عملية حيوية بالنسبة لي، تحدث بفعل عوامل متعددة تدفعني للتسامي والتفهم رغم كل ما تطرحه من عقد وما يتولد عنها من صراع واضطراب"⁽¹⁰⁾.

• "كنت فيضا مطلقا، التقى عندي الخطان، فانبعثت الحياة في .. طراً على تحريف بسيط، أدركته، تلاشت نقطة الالتقاء، فكنت فيضا مطلقا، وحسب كل التقاء تكون حياة معينة."⁽¹¹⁾

أما بالنسبة لعقدة أوديب التي وردت في نص المسودة من خلال تأويلنا للكلمة المشطوبة في النص، فقد وردت معطياتها كذلك بشكل موزع على مساحة النص. ولكن هذه العقدة تخضع هي الأخرى للنزعة العامة التي شكلت المرجعية الوحيدة للكتابة أو الفلسفة الخاصة التي تؤسس لكل شيء، والتي تجنح في الوقت نفسه إلى كل ما هو مثالي ومتعالي. فالحياة لا تخضع إلى حركة عشوائية وإنما تخضع إلى بناء فكري وإلى محددات فلسفية بالدرجة الأولى لدى البدع.

• "البيت مخمور بعروس فانتة" عقدت معها الزواج في ظروف مناسبة تستقبلني عند الباب، باسمه، كحسنة تخلق من الحلم .. وتضمنني إلى صدرها، كأم ترضع طفلها"⁽¹²⁾.

• "إني أكره أبي لأنه يكرهك وأود أن لا أراه مرة ثانية حتى يموت"⁽¹³⁾.

• "ليذهب إلى النار أبي .. ليذهب إلى النار أبي"⁽¹⁴⁾.

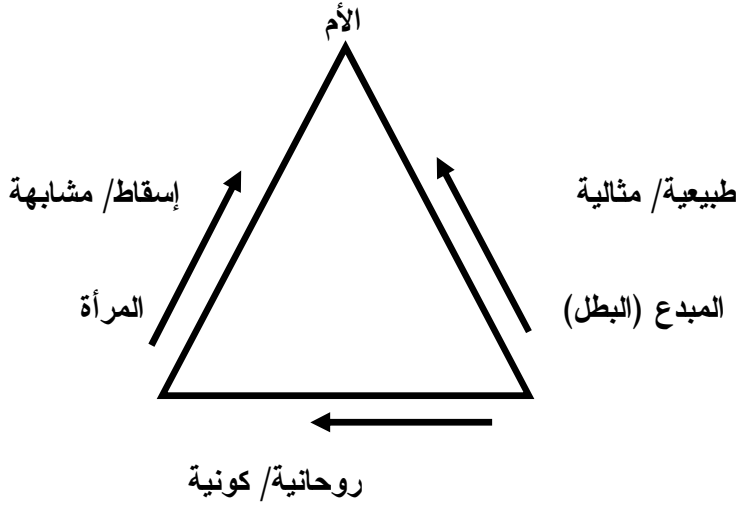
ولعل هذه المثالية يحققها المبدع في عالم الحلم، أين يتحقق كل شيء وتشبع كل رغبة، وقد يكون كل ما ذهب إليه المبدع (عرعار) من تأملات وأحلام، شكلت معظم الأحداث والوقائع والمواقف هو نوع من توظيف لتقافة معينة ومعارف متنوعة قد تسهم في تشكيل الشخصية وتكوينها ولكن ليس إلى حد تطبيق مضامين النظريات والفلسفات تطبيقاً ألياً واسقاطاً مباشراً على شخصية المبدع. فليس كل ما يوظفه من رموز وتعبير وصور، له علاقة أو صلة بشخصيته وحياته.

إن التشبيهات والتعابير التصويرية لابد أن لا توهمنا بوجود للنماذج والقوانين النفسية بما فيها عقدة أوديب في النص (كأم ترضع طفلها)، وإنما يكون ذلك ناتجا عن رغبة المؤلف لتحقيق نمط من التصوير أو نوع من التعبير بعيدا عن أي إصابة بأمراض عصابية وعقد نفسية. لأن "عقدة أوديب" عندما تتمكن بعمق من صاحبها تؤدي بالشخص إلى وضعية غير سوية وحياة مضطربة ومشوشة تصل إلى حد الفشل في عقد أية علاقة سوية أو طبيعية مع الآخرين.

وهذا مستبعد عند "عرعار"، لأن ما ورد من إشارات أو معطيات حول هذه العقدة كان على سبيل التصوير الفني وتحقيق للعلاقة المثالية بين الرجل والمرأة. كأن تكون العلاقة مثالية، كلها صدق ووفاء وحب متفان مثل علاقة الطفل بأمه فهي علاقة طبيعية مليئة بفيض روحاني جارف وبدفء عاطفي جامع. وهذا ما يريد المبدع تحقيقه في علاقة الرجل بالمرأة، وهو إعلاء هذه العلاقة وجعلها تتجاوز العلاقة الجنسية الشهوانية إلى العلاقة الروحانية الكونية منطلقها الجنس أساساً.

• "المهم، أن ما خرجت به هو الاعتقاد في تطوير الجنس وإعلاء مقامه، حتى يخرج من الاحتكاك والالتصاق البدنيين، إلى التواجد والتناغم الكونيين، اللذين هما الدعامتين الوحيدتين المعبرتين عن صدقنا وحقيقتنا الخالدة"⁽¹⁵⁾.

وهكذا يمكننا تعويض المثلث الأوديبي (الطفل/الأب/الأم) بمثلث آخر يشكل نمط أو طبيعة العلاقات التي يريد المبدع تحقيقها يشكل هو نفسه الطرف الأساسي فيها كعنصر يتعارض أو يتقابل مع الأطراف الأخرى (الأم/المرأة)، حيث إن كل علاقة تستمد طبيعتها أو خاصيتها من العلاقة الأخرى بصيغة تكاملية ووظيفية، تحقق النزعة المثالية لدى المبدع حتى لو كان ذلك على سبيل الذكرى أو الحلم ويمكن أن نسمي هذا المثلث بالمثلث العلائقي.



النص الفوقي: إن النص الفوقي أو نص البوح والاعترافات، يبدو وكأنه هو مفتاح امتلاك المبدع ومعرفته عن قرب، من خلال معرفة كل ما يخفيه من عقد وهو جس وأحاسيس وميولات تجعل شخصيته واضحة وشفافة وأعماله الأدبية سهلة المنال، لانكشاف دوافع كتابتها وتأليفها. إلا أن النص الفوقي في بعض الأحيان لا يمد القارئ أو المتلقي بشيء ذي شأن، لتعتمد المؤلف إلى الإفصاح عن تصريحات شحيحة يقدمها بشكل ديبلوماسي لبق، نزولا عند مجاملة أو مناسبة مفروضة أو استضافة من الجهات المتخصصة في تنظيم الحوارات واللقاءات.

وهذا بالتقريب ما حدث مع "عرعار" في مراسلته عنوانها بـ: "اعترافات حول لحظات الكتابة" حيث كانت مقتضبة جدا وموجزة، وكأنها برقية مستعجلة تتضمن ما هو مهم في نظره المبدع دون ثرثرة وتورط في التفاصيل والشروحات التي قد توقع المبدع في انزلاق الاعتراف أو البوح بما لا يريده أن يظهر أو ينكشف. لأن المبدع مهما كانت نشأته أو حياته العاطفية ووضعياته الاجتماعية. فهناك أمور يتمنى أن لا تثار ولا يسمح بإثارتها وإحيائها فيلجأ إلى صيغة التعتيم والتكتم أو التصريح بما هو عام قد ينطبق على أي مبدع كان، باعتبار أن العملية الإبداعية

لها طقوس ومنطلقات قد تكون واحدة، مع اختلاف دوافع الابداع أو حوافزه من مبدع إلى آخر.

وهذا ما فعله "عرعار" في وثيقة الاعتراف، حيث قدم تصريحات عامة وباردة لا تستوقف القارئ أو المتلقي في نقطة معينة أو قضية مثيرة، مثلما كان الأمر في نص المسودة (النص التحتي) أو في النص المطبوع (النص الموازي) (أنظر الملحق الوثيقة رقم 03).

فكل التصريحات كانت حول طقوس الكتابة، من حيث ذكر للأوقات التي يجذبها والأدوات التي يستخدمها، كنوع الأوراق ونوع السيالة المحببة لديه وحديثه عن مشروع الكتابة بصفة عامة. فالعمل الأدبي يكون لدى المبدع مشروعاً يتضمن رؤى وتأملات فكرية (البعد الذهني) لوضعية اجتماعية يعيشها (البعد الاجتماعي) اللتان يحملهما بأبعاد وجدانية وعاطفية تسمح بتحقيق المتعة والاشباع الروحي. وهذا يمثل قاعدة للإبداع مسلم بها، "عرعار" لم يعط شيئاً جديداً بل ذكر بالقاعدة فقط.

وهذا الأمر طبيعي كما ذكرنا سلفاً، إذ لا ننتظر من اعترافات المبدع الشيء الكثير خاصة إذا طلب منه ذلك لغاية أو لهدف إعداد دراسة نفسية حول شخصيته. فكل الاعترافات تؤخذ على سبيل الاستثناس فقط، وقد لا تتطابق كلية مع ما نذهب إليه من تخمينات واستنتاجات حول شخصية المبدع. وهذا ما حدث مع عرعار فالنص يطرح بؤراً من التشكلات النفسية والمعطيات المعقدة التي لا تدل على شخصية طبيعية وهادئة، مثلما تظهرها وثيقة الاعتراف. فشخصيته تحمل معاناة فكرية انعكست على حياتها الوجدانية والاجتماعية، فعاشت حياة مضطربة وقلقة ولكنها سوية في الوقت نفسه.

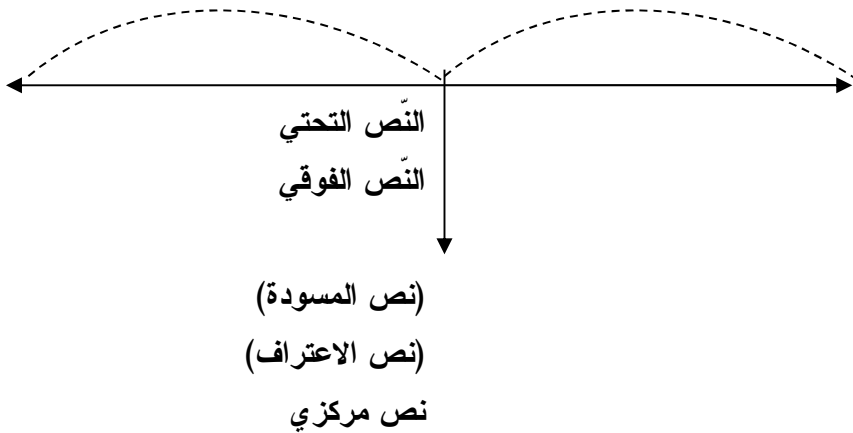
وما يمكن استنتاجه هو أن النص الموازي (النص المطبوع) يتحول في نهاية الأمر إلى نص مركزي باعتبار أن النص التحتي (نص المسودة) لا يعرف

الاستقرار أو الثبات، فهو متحول باستمرار من خلال المراجعات والتصفيحات التي يقوم بها المبدع أو المؤلف من حين إلى آخر، لأنه في كل الأحوال هو بصدد إعداد مشروع للكتابة يخضع إلى تعديلات وإعادة ترتيب وقد يكون الشطب الناتج أو الحذف المتكرر هو في الأساس لذلك الهدف، إلا أنه تبقى بعض المحذوفات تحتفظ بدلالة أو إشارة نفسية مرتبطة بشخصية المبدع وحياته بخاصة طفولته التي تمت بظلالها إلى مراحل أخرى، تسهم في تشكيلها وتوجيهها.

أما النصّ الفوقي (نص الاعتراف أو البوح)، فهو نص شحيح وبخيل يخضع إلى كبح وتقييد من قبل المبدع من أجل ذلك يبقى استنطاق النصّ الموازي (النصّ المركزي) وتفكيك بناء وتراكيبه اللغوية، المنهجية الناجعة لاكتشاف ومعرفة شخصية المبدع مع الاستئناس بمعطيات النصّ التحتي والنصّ الفوقي معا.

النصّ الموازي

(النصّ المطبوع)



الإحالات والهوامش:

- ¹⁻ أحمد حيدوش، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية 1990، ص 11.
- ²⁻ محمد العالي عرعار روائي جزائري من الرعيل أو الجيل الثاني في الكتابة الروائية الجزائرية، له عدة روايات أولها رواية "ما لا تذروه الرياح" و"الطموح" وغيرهما من الأعمال الروائية التي يتجه فيها اتجاه فكرياً أو فلسفياً. فهو كاتب شخصيات وكاتب المواقف والتأملات. لذلك صنف النقاد رواياته في إطار الرواية الفلسفية أو الفكرية.
- ³⁻ الطبعة التي اعتمدناها في هذه الدراسة هي : "البحث عن الوجه الآخر"، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م.
- ⁴⁻ الانطواء (L'introversion): تستعمل كلمة المنطوي لتعني الشخصية الاستبطانية الهادئة غير الاجتماعية، ليست بالضرورة منعزلة. ولقد وظف هذا المصطلح عالم النفس السويسري "كارل يونج". وهو حالة من الميول إلى الانتماء أو الهيمنة كلياً بحياة المرء الذهنية. كما أن الانطواء يتضمن تقضيل النشاطات الانفرادية وتمعن الشخصية المنطوية في التفكير والتحليل وتفضل الأجواء الهادئة التي نقل فيها الإثارة ...
- ⁵⁻ البحث عن الوجه الآخر، ع، س، ص 38.
- ⁶⁻ م، ن، ص 23.
- ⁷⁻ عقدة أوديب (Oedipus complex) : عقدة لا وعية تفسرها نظرية التحليل النفسي بالإشارة إلى أسطورة أوديب وتنشأ هذه العقدة لدى الابن بسبب تعلقه الجنسي بالأم مما يسفر عن شعور بالذنب ومشاعر تحد للأب.
- ⁸⁻ النزعة العرعاروية وردت في اعتراف للمبدع أو المؤلف في رسالة بعثها إلينا بتاريخ 2000/01/31.
- ⁹⁻ البحث عن الوجه الآخر، ع، س، ص 36.
- ¹⁰⁻ م، ن، ص 62.
- ¹¹⁻ م، ن، ص 85.
- ¹²⁻ م، ن، ص 54.
- ¹³⁻ م، ن، ص 82.

